دولة ليبيا

مؤتمر ابن جني الدولي الأول في الفترة مابين 29/يونيوإلى2يوليو 2019م قسم اللغة العربية - كلية الآداب / جامعة طبرق تطور علوم العربية بين الأصالة والحداثة

بحث بعنوان: تطور التفكير النحوي عند علماء المدرسة الأندلسية

مقدم من د. إبراهيم عبد الله سويسي

2019م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أنار العقول بلغة القرآن الكريم، ووهبها العلم والمعرفة، وبصرها بما يحفظ بها سلامة الألسن من اللحن والخطأ، والصلاة والسلام على أفضل خلقه محمد بن عبد الله، صاحب الرسالة، المعقود له لواء الحمد يوم القيامة، اللهم صلل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد جاء البحث المعنون له بـ" تطور التفكير النحوي عند علماء المدرسة الأندلسية" ليطرح أنموذجاً لحل مشكلة اللغة العربية، وعلى وجه التحديد مشكلة صعوبة النحو عند دارسيه من أبنائنا الطلاب، ونظراً لتدني المستوى في فهمه، والعزوف والنفور من دراسته صار لزاماً علينا إيجاد حل لهذه المعضلة.

وبعد اطلاع الباحث على المذاهب النحوية نشأةً وتطوراً، ومن خلال تتبعه لدراسة العلماء فيها، اتضح له أن المدرسة الأندلسية قد تكون أقرب ما يكون لوصف هذه الظاهرة؛ فقد مرَّت الأندلس بظروف سياسية صعبة وخطيرة، وبحروب متعددة أثرت في الحركة الفكرية بشكل عام واللغوية بشكل خاص، فانتشر على إثرها اللحن والخطأ، وفسدت الألسنة وضعفت الملكة اللغوية لديهم، حينها أدرك علماء الأندلس هذا الخطر الجسيم فقاموا بعدة خطوات علاجية ورسموا خطة استراتيجية لسياسات اللغة، لاسيما أن بلاد الأندلس كان بلداً تقطنه أجناسٌ مختلفة من بربر وعرب ويهود ونصارى وأصليين.

لهذا حاول الباحث أن يقدم أنموذجاً من خلال هذا البحث مستعرضاً فيه جهود علماء الأندلس التي توِّجت بتذليل الصعاب، ولفت أنظار الدارسين إليهم ليحدوا حدوهم، فصاغ له العنوان المذكور أعلاه، وطرّزه بمحورين يسبقهما تمهيد، وتعقبهما خاتمة، مقسَّماً على النحو التالى:

التمهيد، وفيه:

أولاً: مفهوم التطور، لغة واصطلاحاً.

ثانياً: مفهوم التفكير، لغةً واصطلاحاً.

ثالثاً: لمحة تاريخية عن المدرسة الأندلسية.

المحور الأول، دواعي تطور التفكير النحوي ومراحله، ويشتمل على:

المطلب الأول: دواعي تطور التفكير النحوي.

المطلب الثاني: مراحل تطور التفكير النحوي.

المحور الثاني: ملامح ومظاهر تطور التفكير النحوي، وفيه:

المطلب الأول: ازدهار دراسة النحو في الأندلس.

المطلب الثاني: آثار تطور التفكير النحوي في المدرسة الأندلسية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

قائمة المصادر والمراجع.

منهجية البحث:

لم يكن هذا البحث استقصاءً لكل ما وصل إليه علماء الأندلس وتفصيلاً لمجهوداتهم التي قاموا بها، إنما هو استعراض لبعض النماذج المهمة ووصف لها؛ إذ إن الاستقصاء والتفصيل يحتاج إلى دراسات واسعة ومطولة لا يسع المقام لسردها في هذا البحث؛ نظراً لطبيعته وظروفه الزمانية.

وإنما هو جهد المقل وعلى الله الكمال، وأتمنى أن أكون قد وفقتُ في تقديمه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على النبي الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

السلام عليكم ورجمة الله وبركاته

الباحث: إبراهيم عبد الله سويسي جامعة طرابلس كلية التربية طرابلس

التمهيد، وفيه:

أولاً: مفهوم التطور، لغة واصطلاحاً.

معناه في اللغة: قال ابن فارس: "الطاء والواو والراء أصل صحيح يدل على معنى واحدٍ، وهو الامتداد في شيءٍ من مكان أو زمانٍ، من ذلك طَوَار الدارِ، وهو الذي يمتد معها من فنائها؛ ولذلك يُقال: عدا طَورَه، أي: جاز الحد الذي هو له من داره، ثمّ استُعير ذلك في كل شيء يُتَعدّى". ابن فارس، أبو الحسين أحمد (1979، ص430).

وفي الاصطلاح: "التطور: التغير التدريجي الذي يحدث في بنية الكائنات الحية وسلوكها، ويُطلق أيضاً على التغير التدريجي الذي يحدث في تركيب المجتمع أو العلاقات أو النظم أو القيم السائدة فيه". (مصطفى، إبراهيم، وآخرون، ص5). وقيل: فعلك الشيء بعد الشيء، يقال: فعلتُ الشيءَ طوراً بعد طَوْر؛ أي: مرة بعد مرّة، وطور: مفرد، جمع تطوّرات لغير المصدر، ومصدر تطوّر: النّطور، وهو التقدم. (عمر، 2008م، ج2، ص1420).

ثانياً: مفهوم التفكير، لغة واصطلاحاً.

الفكر في اللغة: -بكسر الفاء- اسم، وهو: إعمالُ النَّظَر. (الزّبيدي، ج13، ص345)، ويقال: الفِكْرُ: ترتيب أمور في الذهن يُتوصَّل بها إلى مطلوب يكون علماً أو ظناً. (الفيومي، ج2، ص479). مصدره: الفكر، بالفتح، وقد يُكسر، وعلى لغة الفتح أفصح؛ أي: ليس فيه حاجة، وهو من باب (ضرب).

والتفكر: اسم من التفكير، والتفكر: هو التأمل، قاله الليث. (ابن منظور، ج5، ص65). ويقال: فكر في الشّيء، وأفكر، وتفكّر.

وجاء في المصباح المنير أنه: "بالكسر تردُّد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني، ولي في الأمر (فِكْرٌ)؛ أي نظر و رَوِيّة". (الفيومي، ج2، ص479). وَرجل فِكِّير، وفَيْكَر: كثير الفِكْر.

"والتفكير اللغوي من أكرم النعم التي أسبغها الله على الإنسان من خلقه، وجعله خاصته الذي يميزه عن غيره". (محمد، 2002م، ص20).

أما معناه الاصطلاحي: فإن التفكير يكون عند تلازم الدوال لمدلولاتها المتولد من اطراد الاستعمال، وهو الذي يهييئ لعملية الفكر، فضلاً عن أنه يُمكّن الذهن من ممارسة عملية التفكير التي لا تتحقق إلا بتفاعل الدوال والمدلولات، وهو ما يسترشد به الفكر، وما يضيء به العقل، وما تتجذب إليه النفس من خطوات ذهنية، يحوطها انفعال صادق يروم العطاء والبذل، وتزحمها رؤى متناثرة، استجلبها تعلم فَطِن وتأمّل حاذق، وهو العملية الذهنية التي ينظم بها العقل خبرات ومعلومات الإنسان من أجل اتخاذ قرار معين إزاء مشكلة أو موضوع محدد.

ويستازم التفكير العميق ثراءً لغوياً وعمقاً في فهم دلالات وإيحاءات الكلمات المكونة للبناء اللغوي، وليس من شك في أننا حين نفكر لا سبيل لنا إلى التفكير إلا في لغة، ولا حيلة لنا إلى ضبط هذا التفكير إلا إذا كان القالب اللغوي واضح المعالم لا يفضي إلى غموض ولا يدعو إلى لبس، ولا ينم عن قلق واضطراب ينعكس بالتالي على تفكيرنا.

ثالثاً: لمحة تاريخية عن المدرسة الأندلسية.

بدأت ملامح المدرسة الأندلسية تظهر في عصر بني أمية على يد طبقة المؤدبين الذين كانوا يُعلّمون أولاد الأندلس العربية، وكان أغلب هؤلاء المؤدبين يرحلون إلى المشرق فيأخذون عن علماء المدرستين علوم العربية ثم يعودون إلى بلادهم فيرسمونها لأبنائهم.

كان ذلك بدايات التعلم في الأندلس، ثم ما إنْ تعلَّم أبناؤها العلوم المختلفة بما فيها العربية حتى أصبحت تخطو خطوات حقيقية نحو تأسيس مدرسة لهم، على رأسها جودي بن عثمان المَوْروري، العالم النحوي بالمعنى الدقيق لكلمة النحو، ثم أبو موسى الهواري الذي اعتنى بالتأليف، يقول الزبيدي: "وأول من جَمَعَ الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس، رحل في أول إمارة عبد الرحمن الداخل (ت138-172هـ) فلقي مالكاً ونظراءه من الأئمة، ولقي الأصمعي وأبا زيد ونظراءهما، وداخل الأعراب في محالّها، وله كتاب في القراءات". (الزبيدي،ج1،ص253). وهو أول من أدخل كتب الكوفيين ودرّسها لطلابه.

وما أن دخل القرن الثالث الهجري، حتى صار التأليف والشرح يخطو خطواته الأولى على يد كثير من المؤدبين في اللغة والنحو: " ويتميز من بينهم عبد الملك بن حبيب السلمي (ت 238 هـ)، وكان إماماً في الفقه والحديث والنحو واللغة، ومن بين مصنفاته كتاب في إعراب القرآن.

ويُعنَى في نفس القرن مفرج بن مالك النحوي بوضع شرح على كتاب الكسائي، كما يُعنَى معاصره أبو بكر بن خاطب النحوي المكفوف بوضع كتاب في النحو كانت له شهرة في موطنه". (ضيف، ص289).

وفي نهايات القرن الثالث الهجري أخذ الأندلسيون يهتمون بكتاب سيبويه ويعتنون به شرحاً ودراسة وتدريساً، كالأفُشْنيق محمد بن موسى بن هاشم (ت307ه)، ومحمد بن يحيى المهلبي الرباحي الجياني (ت353ه)، ومن بعد هؤلاء خلفهم جيلٌ آخر أخذوا يدرسون آراء أهل الكوفة والبصرة ومسائلهم، من أهمهم: أبو بكر بن القوطية (ت367 ه)، تلميذ القالي وصاحب كتاب الأفعال وتصاريفها المنشور في ليدن، ومحمد بن الحسن الزبيدي (ت 379ه) تلميذ القالي أيضاً ومؤلف كتاب طبقات النحويين واللغويين". (ضيف، ص289).

وفي عصر الملوك والطوائف أخذ علماء المدرسة الأندلسية ينتهجون نهج الكوفيين والبغداديين في الاختيار من آراء البصرة والكوفة ويُعللون العلل لتلك الآراء، بل "عدلوا عن بعض آراء المشارقة في النحو وخالفوهم في منهاج تعليمه وتدوينه، واستدركوا عليهم مسائل فاتتهم". (الطنطاوي،ص178). "ويضيفون إلى ذلك اختيارات من آراء البغداديين، وخاصة أبا علي الفارسي وابن جني". (ضيف،ص292). والأعلم الشنتمري أول من اتجه هذا الاتجاه، واستمر نشاطهم في الشرح والتأليف حتى وصل الغاية في الاعجاب من قبل علماء المشرق، فقد ذُكر أن الزمخشري رحل "في شبيبته من خوارزم إلى مكة لقراءته؛ [أي: كتاب سيبويه] على نحوي أندلسي كان مجاوراً بها هو عبد الله بن طلحة، المتوفى سنة 518 للهجرة". (ضيف، ص294).

ويوضع الطنطاوي قائلاً: "وازداد ازدهارها في عصر ملوك الطوائف الذين قاموا على أنقاض الأموبين وتقاسموا بلاد الأندلس بينهم من سنة 428ه، فإنهم كانوا يتبارون في تقدير العلم وأهله حتى كان منهم العلماء والمؤلفون". (الطنطاوي، ص177)

وفي القرنين السادس والسابع الهجريين استطاع الأندلسيون "أن يختطوا لأنفسهم طريقاً يبعد إلى حد ما عن التأثير المشرقي". (حفيظة، 2011، ص149). فقد كان النشاط النحوي قائماً على أشده، فكثرت فيه المؤلَّفات وعُرفت فيه غزارة العلم، وظهرت فيه أسماء كثيرة من علماء هذا العصر،

"وبذلك استحدثوا مذهباً رابعاً عُرف بمذهب المغاربة أو الأندلسيين، ظهرت مبادئه من أوائل القرن الخامس الهجري، الذي يُعدّ بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد". (الطنطاوي، ص178).

المحور الأول، دواعى تطور التفكير النحوي ومراحله.

المطلب الأول: دواعى تطور التفكير النحوي.

قال المقري: "النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ". (المقري،1920م، ج1،ص 221). فلم يكن النحو في بلاد الأندلس صدفة أو غيثاً منهملاً نزل عليها من السماء حتى وصل إلى ما أشاد به المقري، بل كان نتيجة رغبة حثيثة وجهود مضنية في الإصلاح والتطوير أفراداً ودولة، دفعت علماءها إلى التفكير في أن يكون لهم نحو مستقل متطور بعد استقلالهم من مستعمريهم، غير أنه لم يأخذ طريقه نحو الشكل العلمي هناك إلا حين استقلت دولة أموية في الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة 138هـ، بدأ الأندلسيون يرحلون الى المشرق طلباً للعلم ، وأقبل عدد من علماء المشرق الى الأندلس يحملون علمهم الى أهلها، وكان منهم، أبو على القالى الذي ظل في قرطبة حتى توفى بها سنة 356هـ، وكان التحصيل اللغوي والنحوي عند الطبقة من الناس ضعيفاً نسبياً وصفه الزبيدي بقوله: "إن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها، وتقريب المعانى لهم في ذلك، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها، والاعتلال المسائلها، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية، ولا يجيبون في شيء منها، حتى نهج لهم سبيل النظر، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في الشرق، من استقصاء الفن بوجوهه، واستيفائه على حدوده؛ وانهم بذلك استحقوا اسم الرياسة". (الزبيدي،ج1،ص311). فَسادَ البلاد التحريف والضعف اللغوي، وانعكس ذلك على المؤدبين منهم؛ إذ كان النحو الأندلسي مقتصراً في أول انطلاقه على القواعد الابتدائية التي تلقاها نُحاتهم من المشرق، فـ"هذا جودي النحوي من أبرز المؤدبين أنكر بحضرته قول عباس بن ناصح:

يشهدُ بالإخلاص نُوتيُّها ... شِهِ فيها وهو نصراني

فَلْحِّن حين لم يُشدِّد ياءَ النسب، [ولم يرد عليه انكاره]، وكان بالحضرة رجلٌ من أصحاب عباس ابن ناصح، فساءه ذلك، فقصد إلى عباس وكان مسكنه الجزيرة – فلما طلع على عباس قال له:

ما أقدمك -أعزك الله- في هذا الأوان! قال: أقدمني لحنُك. قال عباس: وكيف ذلك؟ فأعلمه بما جرى من القول في البيت، قال: فهلًا أنشدتهم بيت عمران بن حطان:

يومًا يمانِ إذا الآقيتُ ذا يمنِ ... وإن لقيتُ مَعدِّيًّا فعدناني

قال: فلما سمع البيتَ كرَّ راجعاً، فقال له عباس: لو نزلتَ فأقمتَ عندنا! فقال: ما بي إلى ذلك من حاجة. ثم قدم قرطبة، فاجتمع بجوديٍّ وأصحابه فأعلمهم". (الزبيدي،ج1،ص257).

ومما دفع الأندلسيين إلى ذلك التفكير، الرغبة في وجود طريقة تخلّص النحو من مسائل التعقيد والتفكير في تطويرها بطريقة مُيسرة وسهلة؛ نظراً لوجود العديد من الأجناس المختلفة في بلادهم، عرباً، وعجماً، وبربراً، ويهوداً، أضف إلى ذلك احتدام صراع اللغات فيما بينها آنذاك وبشكل قوي، فانكبوا على دراسته، فجاء نحوهم سلساً، قريب المأخذ، سهل التناول في معظمه، خالياً من العقد المنطقية، والفروض الفلسفية التي بدت عند الرماني، وتغلغل أثرها عند جمهرة النحويين الذين أتوا بعده، كالعلامة الرضي، ما أرهق عقول الدارس المتلقي لهذه اللغة العريقة، كما كان نحوهم بعيداً عن كثرة التعليل الذي لا طائل فيه، فكانت السمة البارزة في الدرس النحوي الأندلسي هو الجنوح عن كثرة التعليل الذي لا طائل فيه، فكانت السمة البارزة في الدرس النحوي الأندلسي أثقالت ألى ما يمكن أن نُسميه تيسيراً للنحو، والتخفيف من أعباء المنطق وأساليب المتكلمين التي أثقالت نحو المشارقة، حرصاً منهم على نيل قصب السبق في هذا الميدان، "فمن أجل هذه الغاية وضع الزبيدي الواضح في النحو". (مطلق،1965م، 48). وألف كتاب "لحن العامة"؛ لتنقية اللغة من الأخطاء الشائعة، وبسط المعافري كتاب أستاذه ابن القوطية في الأفعال، ووضع ابن السيد كتابه الأخطاء الشائعة، وبسط المعافري كتاب أستاذه ابن القوطية في الأفعال، ووضع ابن السيد كتابه المتعلم" على طريقة تعليمية. (مطلق،1965م، 48).

كما أن البعد الجغرافي عن المشرق مولد النحو العربي كان عاملاً من عوامل ضعف فهم اللغة عندهم، ومعرفة قواعدها التي كانت مُعقدة في شرحها ومسائلها: "مما جعل أئمة النحو في الأندلس يفكرون في طريقة تجعل تلك المصنفات المشرقية بسيطة". (عصيدة، 2006م، ص 24). ف "كان لهم في مسائل النحو شؤون، وفي قواعده تخريجات، برعوا في شرح الكتاب والتعليق عليه، وأسهموا في تسهيله وتيسيره على الدارسين، الذين رأوا أن تعقيداً وإبهاماً يطغى عليه...". (حفيظة، 2011م، ص 153).

إلى جانب ذلك: الرغبة في التأليف والإنتاج العلمي بعد جهود كبيرة بذلوها في دراسة وشرح للكتابين (كتاب سيبويه والكسائي)، وإقبال الناس على دراسة اللغة والنحو، ففكّر علماؤها في التجديد العملي والعلمي، فـ"بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف، وعُرف من أعلامهم أبو علي القالي مؤلف "الأمالي"، و"البارع"، و"فعلت وأفعلت"، و"المقصور والممدود"، ثم ابن القوطية صاحب كتاب "الأفعال،...". (الأفغاني،ج1،ص96). "ثم توالى العلماء على دراسة هذه الكتب، والاهتمام بها وشرحها، والتعليق عليها، مثلما فعل مفرج بن مالك النحوي، الذي وضع شرحاً على كتاب سيبويه". (حفيظة،2011م،ص153). ومجمل القول في هذا ما قاله المقري: "إنهم أحرص الناس على التميز". (المقري،1920م،ج1،مص251). فضلاً على أنهم درسوا وخالطوا كتاب سيبويه فامتلكوا به مَلكةً لغوية، واكتسبوا بمُدارَسته صنعةً عربية، أهلتهم إلى التفكير في تطويره، يقول ابن خلدون: "وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها ممن خلامهم، فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم، فتنطبع النفس بها وتستعد إلى تحصيلها تعليمهم، فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم، فتنطبع النفس بها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها". (ابن خلدون،1984ء،ج1،ص362).

فكان لعلماء بلاد الأندلس دور كبير في الاهتمام بالدرس النحوي والاعتتاء به أيّما اعتتاء، ذلك لأنه: "لم يكن عند مؤدبي العربية [الأندلسيين] ولا عند غيرهم من عني بالنحو كبير علم، حتى ورد محمد بن يحيى عليهم". (الزبيدي،ج1،ص311). وإلى جانب وقوف العلماء كان حكام الدولة—أيضاً— حريصين كل الحرص على أن تستكمل دولتهم أركانها ودعائمها في أن تشجع علماءها وخاصة علماء اللغة في الاهتمام بالنتاج العلمي والنظر فيه حتى تنهض الدولة بكل مقوماتها. (السيد،1964م،ص145). بل شجع الحكام علماءهم على أن يرتحلوا في سبيل طلب العلم والتزود منه. (السيد،1964م،ص221).

ومن الدوافع التي دفعتهم إلى هذا التفكير شعورهم بأنهم لا يقلون كفاءة عن علماء أهل المشرق، وإن كانوا هم من قد سبقوهم، إلا أنهم يرون أن اللحاق بالركب خيرٌ من تركه، حتى يكون لهم دور المحافظة على لغة القرآن، والانخراط في سلك العروبة.

لكل ما سبق فقد تآزرت هذه المقومات واجتمعت، والنقت الدوافع والتأمت، ففكر على ضوئها علماء الأندلس في إيجاد طريقة تُعين أبناء دولتهم على فهم قواعد النحو بطريقة سهلة، فاستنهضوا لحمل هذه الرسالة وأخذوا على عاتقهم تحقيقها وإنجازها فكان لهم ما أرادوا.

المطلب الثاني: مراحل تطور التفكير النحوي.

اجتمعت الحاجة إلى تعلم اللغة الدوافع المتعددة، فانبرى لها رجال العلم الذين ما انفكوا يسعون في تحقيقها وإظهارها إلى عالم بلادهم، لا سيما علم النحو؛ إذ كان من أول العلوم تفكيراً في تطويره والعناية به بعد أن كان متعثراً في بداية تكوينه لديهم، فابدأ النحو في المغرب والأندلس يعرف طريقه إلى التطور ابتداءً من القرن الخامس الهجري، أما القرنان السادس والسابع الهجريان فقد ظهر خلالهما ألمع النحاة وأجلهم". (حفيظة،2011م، 151). ومن أجل تحقيق ذلك تدرج التطور النحوي عند علماء الأندلس عبر مراحل وهي:

المرحلة الأولى: اتخذ علماء الأندلس من البعثات العلمية والرحلات نحو المشرق وسيلة وأداة للتطوير "فلا يخفى على أحد ما لهذه الرحلات من أثر في تطور النحو في الأندلس". (عصيدة،2006م، ص 27). حيث أسهمت وبشكل مباشر في خلق طبقة من المعلمين أخذت على عاتقها تدريس اللغة والنحو في مدن الأندلس، إضافة إلى تعلّم الشعر ورواية الأصول، فوفرت هذه الرحلات بيئة لغوية متكاملة، أدّت إلى خلق طبقة من المؤدبين كان لهم دور كبير في تعليم أبناء الأندلس، ما جعل له الأثر الطيب في تعلم العربية والحفاظ عليها، بل في تطورها بعدئذ؛ إذ كان ابتداؤهم لها حول جوانب الصواب والخطأ. (مطلق،1965م، ص 27).

فغدت الرحلات العلمية إلى بلاد المشرق هدفاً يسعون نحوه؛ رغبة في تلقي مختلف العلوم، لا سيما النحو والصرف، وقد لقي بعضهم مشاهير اللغة أمثال الأصمعي والسجستاني والكسائي، وبعضهم فضل التوجه إلى العرب ومشافهتهم والتلقي عنهم، وهذا كله يصب في اتجاه التفكير في تعلم العربية ومعرفة قواعدها وأصولها من كثب، ولا يعني هذا أنهم قد ظلوا عالةً على غيرهم من علماء المدرسة البصرية والكوفية، بل إنهم أوجدوا لأنفسهم من هذه الرحلات طريقاً ساعدتهم في التفكير على تطوير ما قد أخذوه من المدرستين -كما سيأتي بيانه- على يد كثير من النحويين، فتبصروا منها العلوم وتحسسوا بها مواطن التعقيد، نظراً لوجود مشاكل عدة يُعانى منها الأندلس في

تعلم اللغة؛ بسبب وجود الأجناس المختلفة في بلادهم، فكان من الطبيعي إيجاد حلول مناسبة لتيسيرها عليهم، ولعلنا إذ نطلع على كتاب الاستدراك على سيبويه نجد أن الزُبيدي قد ألَّف كتابه هذا من أجل الوصول إلى طريقة تيسر على القارئ فهم الكتاب فيقول: "فإني رأيت علماء النحو في زماننا هذا وما قاربه قد أكثروا التأليف فيه وأطالوا القول على معانيه فأملوا الناظرين، وأتعبوا الناظرين.....، فينظر إلى مبادئ كتابه وعنوانات أبوابه ويرى لطائف معانيه ودقائق حجاجه إلى الإيجاز في قوله والإيعاب لمراده فيزجره ذلك إن كان ذا حجئ عن تكلف ما لا حاجة إليه، ويمنعه الاعتناء بما لا معول عليه".(الزبيدي،1890م، 10).

المرحلة الثانية: التفكير في الذهاب إلى مرحلة جديدة أكثر توسعاً وضبطاً، فقد كان الأنداسيون في أول تعلمهم للعربية يعتمدون على كتاب مختصر الكسائي وسيلة لفهم القواعد البسيطة تساعدهم على فهم القرآن الكريم وفهم اللغة العربية، وظلوا على هذا المنهج إلى أن اشتدت سواعدهم وتمكنت السنتهم من العربية، ثم في أواخر القرن الثالث الهجري فكروا حينئذ في التعمق والاستنباط والقياس فنجد" الأفشنيق محمد بن موسى بن هاشم (ت 307ه) يرحل إلى المشرق ويلقى بمصر أبا جعفر الدينوري، ويأخذ عنه كتاب سيبويه رواية، ويُقرئه بقرطبة لطلابه، ويأخذ غير نحوي في مدارسة الكتاب مثل أحمد بن يوسف بن حجاج (ت 336)، وكان يضع دائماً كتاب سيبويه بين يديه ولا يني عن مطالعته في حال فراغه وشغله وصحته وسقمه". (ضيف،ص 289). ومن بعده في عصر الرياحي أيضاً – اهتم الأندلسيون بكتاب سيبويه اهتماماً كبيراً؛ قال الزبيدي: "ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم من عني بالنحو كبير علم، حتى ورد محمد بن يحيى عليهم، وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكله...". المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكله...". علماء الأندلس من النحوبين كابن مالك، وابن مضاء، وأبي حيان وغيرهم؛ لأنه "يرمي إلى تدبر أصول هذا العلم وعرض الآراء فيها على محك النقد المتحرر والخلاص على حسن الاختيار". (ولد

المرحلة الثالثة: في هذه المرحلة بدأت بوادر التطوير تظهر شيئاً فشيئاً على شكل اهتمام فردي تمثل في شرح الكتب أمثال: ابن الطراوة، وابن الباذش، وابن الطاهر، وابن خروف، "هدفهم أن يضيفوا إلى النحو جديداً يُمكنهم من القول إن لهم آراء اجتهادية خاصة بهم، بعيدة عن التأثير

المشرقي في هذا العلم". (حفيظة، 2011م، ص 149). حتى تمكنوا بعد ذلك من إنتاج مذهب نحوي جديد مر بمرحلة طويلة من التأسيس والتفكير، ومن إيجاد صناعة نحوية أسهمت في إثراء الساحة العلمية، وخاصة فيما يسمّى بالعصر الذهبي للنحو الأندلسي (القرنين السادس والسابع الهجريين)"؛ إذ ظهر في هذين القرنين أئمة أعلام في هذه البلاد، كان لهم أثر محمود في النهوض بعبء الدراسات النحوية تعليماً وتأليفًا". (السيد، 1964م، ب). "فلا عجب بعد هذا إذا رأيناهم يدرسون النحو دراسة ناقدين ممحصين لا دراسة مُقلّدين، يتناولون مسائله بالنقد والتعليل ودقائقه بالشرح والتحليل، مستدركين على الأوائل ما أغفلوه أو ناقدين بعض ما قرروه". (الحداد، 2005م، ص 50).

وبهذه المرحلة انتقل النحو الأندلسي من مرحلة التأسيس إلى مرحلة التطوير، حيث اجتهد علماء الأندلس في وضع منهج واضح لهم تبنى الآراء النحوية فرادى وجماعات، جعلت من الأندلس قبلة يتجهون نحوها في الأخذ بآرائهم واستحسانها عندهم، نذكر منها:

1-ما ذهب إليه ابن السيد البطليوسي من أن (كأنّ) لَا تكون للتشبيه إلّا إِذَا كَانَ خَبَرُهَا اسْماً جَامِداً، نَحْو: كَأَنّ زيداً أَسد، بِخِلَاف: كَأَنّ زيداً قَائِم، أو فِي الدَّار، أو عنْدك، أو يقوم، فَإِنَّهَا فِي ذَلِك كُله للظن. (ابن هشام،1985م، 250).

2-موافقة الخضراوي البصريين في شرط جمع المذكر السالم، حيث قال: "وَلَا يُقَال إِن الْمَنْع للعجمة والعلمية دون التَّأْنيث؛ لِأَن العجمة لَا تمنع صرف الثلاثي". (السيوطي، ج1، ص122).

3-موافقة ابن مالك رأي البصريين في أن (هلمَّ) مركبة من هاء التنبيه و (لم)، حيث قال: "وَقَول الْبَصرِيين أقرب إِلَى الصَّوَاب". (السيوطي،ج3،ص110).

4-مخالفة ابن عصفور رأي البصريين فيما ينوب عن الفاعل عند اجتماع المصدر والظرف والمجرور، حيث اختار المصدر، واختار أبو حيان الظرف، والبصريون الخيار. (السيوطي،ج1، 585).

5-منع توكيد العائد المنصوب المحذوف قياساً، نحو: "جاء الذي ضربت نفسه"، قال الأشموني "ومنعه ابن السراج وأكثر المغاربة". (السيوطي، ج1، ص585).

6-تصحيحهم عمل (أنْ) المخففة المفتوحة في الظاهر أيضاً، قال السيوطي: "الثاني أنها تعمل في المضمر وفي الظاهر، نحو: علمت أن زيداً قائم، وقُرئ: ﴿أن غضب الله عليها ﴾، وعليه طائفة من المغاربة". (السيوطي،ج1، ص514).

7-علّل جمهور النحاة تقدير الضمة والكسرة في الاسم المنقوص بالاستثقال، وانفرد الشلوبين بزيادة علّم أخرى على ذلك، وهي اجتماع الأمثال، حيث قال: "إنما قُدّرت الضمة في جاء القاضي، وزيد يرمي، ويغزو، والكسرة في مررت بالقاضي؛ لثقلهما في أنفسهما، وانضاف إلى ثقلها اجتماع الأمثال، وهم يستثقلون اجتماع الأمثال، قال: والأمثال التي اجتمعت هنا هي: الحركة التي في الياء والواو، والحركة التي قبلها، والياء والواو مضارعتان للحركات لأنها من جنسها، ألا ترى أنهما ينشآن عن اجتماع الحركات، فلما اجتمعت الأمثال خففوا، بأن أسقطوا الحركة المستثقلة". (الشلوبين،1993م،ج1،ص121).

8—تغرُّد أبو حيان في زيادة مواضع وجوب استتارة الضمير، وهو مرفوع اسم الفعل المضارع، نحو: (أوه) بمعنى أتوجع، ونحو: (أف) بمعنى أتضجر، حيث يقول: "فمنه واجب الخفاء، وهو المرفوع بالمضارع ذي الهمزة أو النون، وبفعل أمر المخاطب ومضارعه، واسم فعل الأمر، "وقوله: واسم فعل الأمر، مثاله نزال ... ونقص المصنف قسماً لم يذكره — الضمير فيه واجب الاستتار — وهو اسم الفعل الذي هو مضارع للمتكلم، نحو: "أوه" بمعنى: أتوجع، و "أف" بمعنى: أتضجر ونحوهما، فكان ينبغي أن يقول: وهو المرفوع بالمضارع ذي النون أو الهمزة أو اسم فعله". (الأندلسي، ج2، ص 130).

على الرغم من هذه الاجتهادات المرحلية إلا أن الأندلسيين أسسوا لتطورهم هذا قاعدة متينة ساعدتهم في تطوير أفكارهم، حيث حظيت المساجد بمكانة تعليمية خاصة، فكان لها دور في تعليم العربية منذ بدايات القرن الثالث، ف: "أصبحت الحلقات في المساجد تستقطب العديد من الدارسين، يُلقي المعلمون فيها دروسهم في مختلف الميادين". (حفيظة، 2011م، ص 23). وظلت على هذا النهج فترة زمنية طويلة نشطت من خلالها الحركة اللغوية في بلاد الأندلس، و: "كانت من القوى الدافعة في تطوير النشاط اللغوي". (مطلق، 1965م، ص 71).

المحور الثاني: ملامح ومظاهر تطور التفكير النحوي.

المطلب الأول: ازدهار دراسة النحو في الأندلس.

شهدت بلاد الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين تحديدا تطوراً كبيراً في دراسة النحو عند علماء المدرسة الأندلسية، "نظراً لما نالته من اهتمام بالغ من طرف اللغويين والنحاة، الذين برعوا في الإلمام بجوانب مختلف في علوم اللغة". (حفيظة، 2011م، ص186)، من طرف الحكام آنذاك، حتى كان للنحو الأندلسي أثر جلي في الخالفين.(السيوطي،ج2،ص46). وكانت مجالسهم ملآى بالمناقشات والمناظرات والأسئلة المختلفة في أبواب العلم، حتى أن علماءها كانت لهم السدنة في بلاد المشرق، ومن ذلك ما قاله المقري: إن الشيخ الفقيه النحوي أبا جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي: "اجتمع في رحلته للمشرق بالقاضي ابن دقيق العيد، وكان نحوياً، فلما دخل عليه اللبلي قال له القاضي: خيرَ مقدم، ثم سأله بعد حين بمَ انتصب خير مقدم؟ فقال له اللبلي: على المصدر، وهو من المصادر التي لا تظهر أفعالها، وقد ذكره سيبويه، ثم سرد عليه الباب من أوله إلى آخره، فإنه كان يحفظ أكثره، فأكرمه القاضي وعظمه". (المقري، 1920م، ج2،ص209).

وسأذكر بعضاً من مظاهر الازدهار التي شهدها الأندلس في مجال الحركة اللغوية المتمثلة في الآتى:

1- أصالتهم في التأليف: كان علماء الأندلس منذ بدايات القرن الثالث الهجري يعتمدون في دراساتهم على كتب المدارس المشرقية ككتاب الكسائي وسيبويه، وما إن لبث العلماء شيئاً فشيئاً حتى أصبحوا يخوضون غمار التأليف بأنفسهم، ففي القرنين السادس والسابع الهجريين، استنهض نخبة منهم فشحذوا الهمم وعزموا على ذلك، فاستطاعوا أن يُبدعوا ويُصنفوا الكتب والمؤلفات، ما جعل نحاة المدارس المشرقية يلتفتون إليها ويولونها اهتماماً كبيراً، نظراً لتميزها، وبراعة أصحابها في التأليف، من هؤلاء:

أ-الزبيدي: له لحن العامة، والواضح في النحو.

ب-ابن القوطية: له الأفعال، والمقصور والممدود.

ج- المعافري: بسط كتاب الأفعال لابن القوطية.

د- عبد الملك بن الطريف: له كتاب في الأفعال.

ه- المالقي: له كتاب رصف المباني في شرح حروف المعاني.

2-الاستشهاد بالحديث في الأحكام النحوية: نتيجة تحديد الاستشهاد بكلام العرب شعراً ونثراً لم يجد علماء المدرسة الأندلسية إلا لإيجاد طريقة جديدة والتفكير فيها، فكان الاستشهاد بالحديث طفرة علمية وتطوراً جديداً وسابقة تضاف إلى أعمالهم الفكرية؛ إذ إن الحديث ثروة لغوية هائلة يمكن أن يستفاد منه في تتشيط الحركة اللغوية، فهو أفصح كلام، وأبين دليل في الاستشهاد النحوي؛ فاهتموا به رغم التحديات التي كانت تواجههم وترد عليهم، إلا أنهم استطاعوا وبقوة بفضل الجهود التي بنلوها إثبات الدليل في صحة الاحتجاج به، فمن أشهر النحاة الذين استشهدوا به: السهيلي، وابن مالك، وابن خروف، يقول ابن الضائع: "وابن خروف يستشهد بالحديث كثيراً، فإن كان على وجه الاستظهار والتبرك بالمروي فحسن، وإن كان يرى أن من قبله أغفل شيئاً وجب عليه استدراكه، فليس كما رأى ". (السيوطي،1989م، 1989م، ومنهم ناظر الجيش، فقد كانت مواقفه تؤيد الاستشهاد بالحديث حيث بلغت شواهد الحديث في كتابه (تمهيد القواعد) ما يزيد عن ثلاثمائة

فهؤلاء جعلوا من الاستشهاد بالحديث في عصرهم والعصور التي من بعدهم سمةً من سمات التميز، وأثراً من آثار التطور، كما ينظر إليهم أنهم ممن قدّموا للنحو خدمة جليلة تثري الآراء وتوسع الاجتهاد.

5- إعمال الفكر في الاجتهاد وكثرة الاستنباط والاحتجاج والتعليل: وبعد أن اكتمل النحو ونضج وازدهرت دراسته وتحققت في القرنين السادس والسابع الهجري بظهور نخبة من علماء بلاد الأندلس أسهمت في تطوره وازدهاره حتى بلغ الغاية، صارت لهم آراؤهم المنفردة، وبانت لهم نزعاتهم النحوية واتجاهاتهم المختلفة، ممن نبغوا في الدراسات النحوية مستدركين على الأوائل ما أغفلوه، أو ناقدين لبعض ما قرروه بالنقد والتعليل والشرح والتحليل وتوضيح دقائقهم، فضلاً عن الكتب التي ألفوها، ما يجعلك تشعر بوجود حركة علمية نشطة، أدت إلى الخلوص إلى آراء جديدة، ومن أشهر ما نهج إلى ذلك الأعلم الشنتمري (ت476هـ). فقد كان لا يكتفي في الأحكام النحوية بالعلل الأولى بل كان يطلب علة ثانية للحكم، ومن ذلك – أيضاً – ما تفرد به ابن مالك في أنه لا خلاف في بناء

الفعل المضارع إذا لحقته ألف، أو واو، أو ياء، بينما قال بإعرابه جماعة منهم: السهيلي، وابن طلحة، وابن درستويه. (السيوطي، ج1، ص73).

وممن أسهموا في ازدهار الحركة اللغوية النحوية وتطورها: أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن مضاء القرطبي (ت592 هـ)، وعلي بن محمد بن علي بن خروف الحضرمي (ت609 هـ)، ومن علماء اللغة والنحو في هذا العصر أيضاً ابن أبي ركب، مصعب بن محمد الخشني (ت604هـ)، وكذلك أبو علي عمر بن محمد الإشبيلي الشلوبيني، الذي يعتبر إمام النحوبين في هذا العصر (ت562-645هـ). (السامرائي وآخرون،2000م، 2000م، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي إمام عصره في النحو وعلوم اللغة، يجتمع إليه الناس من كل فج؛ ليقرأوا عليه، أويقتبسوا من غزير علمه، وكان حجة ثقة ضابطاً. وله عدة مؤلفات قيمة. (عنان، 1991م، ج3، ص468).

4-إنشاء المكتبة الأموية في زمن عبد الرحمن الناصر (ت300ه- 350هـ) وابنه المستنصر (ت350-366هـ): حيث كان الحكم يستجلب الكتب ويجمعها بـ"ما يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد... وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرام بها".(المقري،1920م،ج1،ص395). وكان عدد محتوياتها إلى ما يقرب من أربعمائة ألف مجلد.(عنان،1997م،ج1،ص701). وكان جمعهم لها من طريق الوفود الذين يتقاطرون على بلاد الأندلس آنذاك، أو إرسال الوفد إلى النواحي والأقاليم لغرض شرائها من مؤلفيها، قال المقري:" وكان الحكم كريماً معنياً بالعلم، وهو الذي وجه إلى الحافظ أبي الفرج الأصبهاني ألف دينار على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغاني". (المقري،1920م،ج3،ص72). فكانت المكتبة تحوي العديد من العلوم المختلفة، من بينها كتب في النحو، فكان لها دور مهم في تيسير الاطلاع وتعلم اللغة للطلاب والدارسين.

وكان من أبرز الظواهر الأدبية في هذا العصر، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين، ونبوغ الكثير منهم فيها، وبلوغهم مرتبة البراعة في كتابتها، (عنان،1997م،ج1،ص694). فاستمرت النهضة الفكرية، التي ازدهرت في عصر الناصر، وفي عهد ولده الحكم المستنصر (350- 366 هـ) وازدادت قوةً وازدهاراً. وكان الحكم، وهو الخليفة الأديب العالم، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة". (عنان،1997م،ج1،ص701).

5-إنشاء مدارس تعليمية لتعليم اللغة إلى جانب العلوم الأخرى: تقوم هذه المدارس بتنظيم أوقات خاصة لتعليم النحو، ووضع قوائم بأسماء الكتب والأساتذة الذين سيقومون بتدريسها، حيث: "اهتمت مدرسة غرناطة بتعليم اللغة والأدب، فاعتمدت كتاب سيبويه وكتاب الأغاني وآثار الجاحظ ومقامات الهمذاني والحريري". (السامرائي وآخرون،2000م،357). فنالت الحركة اللغوية الحظوة في مملكة غرناطة"، ومن أشهر روادها: أبو بكر محمد بن إدريس القضاعي (ت 707 هـ) وله كتاب (الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض)، والعالم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم النحوي (ت-626) عصر 108هـ)... وأبو عبد الله محمد بن علي الفخار الذي كان شيخ النحاة الأندلسيين في عصر [السلطان أبي عبيد الله محمد بن الأحمر]". (السامرائي وآخرون،2000م،ص 259).

6-استقدام علماء الأمصار للعمل في قرطبة، على رأسهم أبو على القالي الذي كان له دور كبير في التطور الذي وضع الرباحي أصوله. (مطلق،1965م، 1965م، "فقد شجع الناصر وابنه الحكم العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس وأغدقا عليهم العطاء، وكانوا قد جلبوا الكتب القيمة". (السامرائي وآخرون، 2000م، 2070م). وتخرّج عدد من العلماء في بلاد الأندلس من علماء اللغة والنحو دون الحاجة إلى أن يرحلوا إلى بلاد المشرق، ومن أشهر هؤلاء: الزبيدي وابن القوطية، ضارعوا علماء المشرق، " فلم يرتحلوا بعد إلى المشارقة، وعكفوا على ما حصلوا عليه، وصدقوا العزيمة في تثمير ما عندهم". (الطنطاوي، ص177).

وبالجملة فإن الحركة الفكرية نمت وازدهرت، حتى قيل: كان بالمشرق لغوي، وبالمغرب لغوي، في عصر واحد، ولم يكن لهما ثالث، وهما ضريران، فالمشرقي أبو العلاء التتوخي بالمعرة، والمغربي ابن سيده الأندلسي، وابن سيده أعلم من المعري، أملى من صدره كتاب "المحكم" ثلاثين مجلداً، وما في كتب اللغة أحسن منه. (سلفه،1963م، ج1، ص109).

المطلب الثاني: آثار تطور التفكير النحوى.

تمثلت آثار النطور النفكيري الذي وصل إليه النحو في بلاد الأندلس فيما يلي:

1- الاجتهاد في التيسير لبسط النحو وتسهيله: بعد دعوات متكررة، أدرك نحاة الأندلس الخطر الذي يداهم اللغة العربية فعرفوا حينئذ "أن وظيفة النحو الأساسية هي تصحيح استعمال العربية نطقاً وقراءة وكتابة". (حفيظة، 2011م، ص26، 163). فقد عمل على هذا علماء كثر، من بينهم:

ابن مالك في كتابه "التسهيل" وفي نظم ألفيته، و "ابن مضاء" في نظريته المتمثلة في الدعوة إلى الغاء العامل، وإلغاء العلل الثواني والثوالث، والدعوة إلى عدم خلط النحو بالمنطلق، ونفورهم من التعليل على العامل. (الحداد،2005م،ص50). وأبو علي الشلوبين من خلال كتابه "التوطئة" في وضع أسس مناهج تيسير النحو، وتخفيف أعبائه، وتذليل الصعوبات التي عقدته، ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين كان لهم مضرب الأمثال في النوع الفكري وفي إعمال الفكر النحوي أبو حيان الأندلسي؛ إذ يُعد النحو الذي قدمه من خلال تفسيره البحر المحيط معتدلاً وسطاً بين نحو المدارس الشرقية وبين نحو المدرسة الأندلسية في جناحه الداعي إلى إلغاء العامل النحوي، فقد تمكن أبو حيان – بحكم اطلاعه على النحو في المدارس البصرية والكوفية والبغدادية والمصرية – من وضع أسس منهجية لدراسة النحو، ومن أهم معالم هذا التفكير:

أ-استقلالية أبي حيان في الاستدلال بالأصول النحوية، وذلك عندما يرى تقديم السماع على القياس في القراءات المتواترة وانتصارها له، فهو يضع منهجاً جديداً لم يقُل به البصريون ولا الكوفيون من قبل، حيث يقول: "ولسنا مُتعبَّدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم، فكم حُكْم ثبت بنقُل الكوفيين منْ كلام العرب لم ينقله البصريون، وكم حُكمٍ ثبَتَ بنقُل البصريين لم ينقله الكوفيون، وإنما يعرف ذلك من له استبْحار في علم العربيَّة، لا أصحابُ الكنانيسِ المشتغلونَ بضرُوبٍ من العلوم، الآخذون عن الصُحُف دون الشيوخ". (الأندلسي،1999م، ج3، ص 500).

ب- استقلالية أبي حيان في اعتماده على المطرد بعيداً عن القياس والشاذ والنادر؛ إذ نجده يقدم المطرد على غيره في منهجه النحوي فيقول في تخريج قراءة من قرأ (كما سئل) على لغة التسهيل بين بين بقوله: "لأن هذا الإبدال شاذٌ ولا ينقاس. وتلك لغة ثانية، فكان الحمل على ما كان لغة أولى من الحمل على الشَّاذ غير المطرد". (الأندلسي، 1999م، ج1، ص556).

ج- استقلاليته الفكرية في مذهبه النحوي: فهو لا يتعصب لرأي بصري أو كوفي، ويرد الآراء التي يراها بحسب تفكيره وتعمقه في الدروس والمسائل النحوية المخالفة لوجهة رأيه، فنراه يقول: "البصريون يجيزون ذلك فيقولون: عجبت من ضرب زيد عمراً. والفراء يقول: لا يجوز ذلك، بل إذا نُوّن المصدر لم يجئ بعده فاعلٌ مرفوع. والصّحيح مذهب الفراء، وليس للبصريين حجةٌ على إثبات دعواهم من السّماع، بل أثبتوا ذلك بالقِياسِ على أن والفعل. فمنع هذا التوجيه الذي ذكروه ظاهر ".(الأندلسي، 1999م، ج1، ص556). ويقول من جانب آخر في إثبات رأيه واستقلاليته دون

تعصب: "إذا: ظرف زمانٍ، ويغلِب كونها شرطًا، وتقع للمفاجأة ظرف زمان وفاقاً للرِّياشيِّ، والزَّجاج، لا ظَرف مكان خلافاً للمبرِّد، ولظاهرِ مذهب سيبويه، ولا حرفاً خلافاً للكوفيينَ". (الأندلسي، 1999م، ج1، ص99).

ولعلنا لا نستطيع حصر معالم التفكير عند أبي حيان، وإنما نكتفي بالإشارة إلى نتائج وثمرات التطور في التفكير النحوي الذي وصل إليه علماء المدرسة الأندلسية من خلال أبي حيان كنموذج لملامح التطور في هذه المدرسة.

2-ظهور شروح ومختصرات لكتب النحو ذات الطابع المعقد التي أرهقت دارسيه ونقرت طالبيه: عندما أدرك علماء الأندلس هذه النفرة ورأوا أنهم بحاجة إلى التفكير في طريقة ترغب الناس وتحبب فيهم النحو من خلال المختصرات والشروح البسيطة؛ صنفوا الكتب العلمية التي تسهل على القارئ الوصول إلى النحو العربي بيسر وسهولة، ومن أبرز هذه المختصرات كتاب "منبه الحجارة" لجودي ابن عثمان الذي كان تعليماً للطلاب الصغار، وكتاب "التلخيص في النحو" لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري .(عنان،1990م، ج3،ص456). وكتاب "الحلل في شرح أبيات الجمل" لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، و"الواضح في النحو" للزبيدي، الذي يُعدّ كتاباً تعليمياً بحتاً بعيداً عن التعقيد، ظهر نتيجة تجربة عملية بحتة عرف من خلالها ما يحتاجه تلامذته.(عصيدة،2006م، ص85). جاء في المزهر: "كان شيخُنا أبو ذرّ يقول: المختصرات التي أضائلت على الأمهات أربعة: مختصر العين للزبيدي، ومختصر الزّاهر للزّجاجي، ومختصر سيرة ابن إسحاق لابن هِشام، ومختصر الواضحة للفضل بن سلمة". (السيوطي،1865م، ج1، ص44). يقول المقري في بيان مؤلفات نحاة الأندلس: "وأما كتب النحو فلأهل الأندلس من الشرح على الجمل ما يَطُول ذكره، فمنها: شرح ابن خروف، ومنها شرح الرندي، ومنها شرح شيخنا أبى الحسن ابن عصفور الأشبيلي". (المقري،1920م، ج3، ص184).

3-شرح المتون النحوية المنثور منها والمنظوم تيسيراً على طلاب العلم: حيث انبرى لها عدد من علماء الأندلس وقاموا بشرح هذه المتون التي كانت غاية في الصعوبة، ففكوا طلاسمها وأزاحوا غبار التعقيد عنها، فكان من بينها كتاب سيبويه، حيث قام بعض العلماء بشرحه وتبسيط شواهده، وبعضهم بشرحه جملة وتقصيلاً، ومنهم من أخذ جزءاً من مسائله المبهمة والغامضة وشرحها وفك رموزها ومصطلحاتها.

4-ظهور النظم في التأليف النحوي على غرار النظم في الفقه والأحكام الشرعية: فقد كان لعلماء الأندلس السبق في ظهور هذا النظم وتأليفها، كنظم ابن معط في النحو وهو أول نظم ظهر، ثم توالى التنظيم التعليمي في القواعد النحوية بعد ذلك، كألفية ابن مالك داعية الصيت والشهرة، فرغب الناس في قراءتها، وكان لها الدور البارز والأثر الفعال في تعليم وتطوير النحو العربي – بالنظر إلى ماقبله – لدى المتعلمين والدارسين، إضافةً إلى ظهور هذا النوع من التأليف الذي لم يُعرف من ذي قبل، فقد ظهر ما يعرف بالأرجوزة في النحو، كأرجوزة ابن المرحل في النحو، ونظم آخر للجزولية في النحو، كل هذا وغيره من النظم أسهم في تيسير النحو وترغيبه لدى طالبيه آنذاك، ما جعل له الأثر الطيب في المحافظة على قواعد النحو العربي.

7-استحداث مدرسة جديدة ذات طابع ومنهج جديد، وصفه الطنطاوي بقوله: "وتقضي البداهة أن إنعام الفكر في المسائل موحٍ وملهم باستكمال بعض النقص الفائت... فإنهم عدلوا عن بعض آراء المشارقة في النحو وخالفوهم، وبذلك استحدثوا مذهباً رابعاً عُرفَ بمذهب المغاربة أو الأندلسيين، ظهرت مبادئه من أوائل القرن الخامس الهجري، الذي يعد بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد". (الطنطاوي، ص 178).

والمتأمل في هذه الآثار يلحظ جليّاً كيف قفزت الأندلس من بلد أطاحت به الحروب والطوائف والظروف السياسية المختلفة إلى بلد أصبح يشار إليه بالبنان في التقدم العلمي في مختلف مجالاته، ناهيك عن اللغة العربية نطقاً وكتابة ورسماً، ف" التطور الحضاري في الأندلس خلال هذه الفترة زاد وكبر من حجم ظاهرة الاستعراب بالأندلس؛ أي: إقبال الإسبان على تعلم اللغة العربية وآدابها". (السامرائي وآخرون،2000م، 2000م، 235،324). مع البعد الجغرافي عن بلاد المشرق مهد اللغة وحاضنتها، يدل دلالة واضحة أن تلكم الجهود قد جعلت منها مدرسة في النحو استطاعوا بفضلها أن يقضوا على كثير من الظواهر اللغوية التي فشت بين أبنائهم آنذاك.

الخاتمة

وفيها أهم النتائج:

- 1- إن هذا الثبت الحافل من المفكرين والعلماء الأندلسيين، الذين ازدهروا في العصور المختلفة من بلاد الأندلس، في مختلف ميادين العلوم والآداب، ومنهم عبقريات بارزة يزدان بها تاريخ الحركة العقلية الأندلسية، يحمل على كثير من التأمل.
- 2- التيسير ليس اختصاراً أو حذفاً لما في النحو، وإنما هو طريقة في العرض من حيث الأسلوب والمنهج في الترتيب.
- 3- تعد المدرسة الأندلسية أنموذجاً لرسم سياسات إعادة ترتيب المنهج اللغوي لأبنائنا الطلاب.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب المطبوعة

1- الأُشْمُوني، أبو الحسن، علي بن محمد بن عيسى. (1998م). شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط1، البنان: دار الكتب العلمية.

2- الأفغاني، سعيد بن محمد بن أحمد. (لا.ت). من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح.

3-الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف. (لا.ت). التذبيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تح: حسن هنداوي، ط1، دمشق: دار القلم، (من 1 إلى 5)، وباقى الأجزاء إشبيليا: دار كنوز.

4- الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف. (1420هـ). تفسير البحر المحيط، تح: صدقي محمد جميل، بيروت: دار الفكر .

5 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (1984م). مقدمة ابن خلدون ، بيروت: دار القلم.

6- ابن سيده، أبو الحسن، علي بن إسماعيل. (2000)، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية - بيروت.

7- ابن هشام، عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين. (1985م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك، ومحمد على حمد الله، ط6، دمشق: دار الفكر.

8- ابن فارس، أبو الحسين، أحمد. (1979م). معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

9- ابن منظور، محمد بن مكرم. (لا.ت). لسان العرب، ط1، بيروت: دار القلم.

10- حفيظة، يحياوي. (2011م). إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحو العربي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، جامعة مولود معمري، الجزائر: منشورات مخبر الممارسات اللغوية.

- 11- الزُبيدي، أبوبكر، محمد بن الحسن. (1890م). الاستدراك على سيبويه، تح: أغناطيوس غويدي، روما.
- 12-الزبيدي، أبوبكر، محمد بن الحسن. (لا.ت). طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف.
- 13- الزَّبيدي، أبو الفيض، محمّد بن محمّد. (لا.ت). تاج العروس من جواهر القاموس تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية .
- 14- السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون.(2000). تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- 15-سلفه، أبو طاهر، أحمد بن محمد بن أحمد. (1963م). أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفى، تح: إحسان عباس، ط2، لبنان: دار الثقافة.
- 16- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (1989م). الاقتراح في أصول النحو وجدله، حققه وشرحه: محمود فجال، وسمى شرحه (الإصباح في شرح الاقتراح)، ط1، دمشق: دار القلم.
- 17- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (لا.ت). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان: المكتبة العصرية.
- 18- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (لا.ت). همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: عبد الحميد هنداوي، مصر: المكتبة التوفيقية .
- 19-الشلوبين، أبو علي. (1993م). شرح المقدمة الجزولية الكبير، تح: تركي بن سهو العتيبي، ط1، الرياض: مكتبة الرشد.
- 20- الطنطاوي، أبو محمد، عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل محمد. (لا.ت). نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط1، دار القلم.
 - 21 ضيف، أحمد شوقى عبد السلام. (لا.ت). المدارس النحوية ، دار المعارف.

22- عنان، محمد عبد الله. (1997 م، 1990م). دولة الإسلام في الأندلس، ط2، ط4، القاهرة: مكتبة الخانجي.

23- عمر، أحمد مختار عبد الحميد. (2008م). معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، ط1، عالم الكتب.

24-الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري. (لا.ت). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت: المكتبة العلمية .

25- محمد، حمدان حسين. (2002م). التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، ط1، الجماهيرية الليبية: منشورات كلية الدعوة الإسلامية.

26- المقري، أحمد بن محمد. (1920م). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

27- مصطفى، إبراهيم، وآخرون. (لا.ت). المعجم الوسيط ، تح: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

28-ولد أباه، محمد المختار. (1969م). تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.

ثانيا: الرسائل العلمية.

1-الحداد، عبد العزيز عبد العزيز المرسي. (2005م). الأصول النحوية عند المدارس الأندلسية، إشراف: عبد العظيم حامد محمد هلال، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الأزهر ، الزقازيق.

2- السيد، أمين علي. (1964م). الاتجاهات النحوية في الأندلس وأثرها في تطوير النحو، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم.

3-عصيدة، فادي صقر . (2006م). جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي، إشراف: وائل أبو صالح، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

4- مطلق، ألبير حبيب. (1965م). الحركة اللغوية في بلاد الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأمريكية، بيروت.